

العولمة والأمن الثقافي

أ.د سفيان دريس

قسم علم الاجتماع والديموغرافيا - جامعة الجزائر 2

الملخص

سلوكيات الأفراد والمجتمعات ما هو إلا انعكاس لثقافته، أي أن ثقافة الفرد هي محدد هام في تطور المجتمع أو انحطاطه، حيث يرى البعض أن العولمة والتطور التكنولوجي والتدفق الأفقي للمعلومات شمال جنوب أو ما يسمى بالفجوة الرقمية، كلها عوامل ساعدت في تغير الوجه الاجتماعي للدول العربية. وما هو إلا محاولة للسيطرة على العقول وفق إستراتيجية، تستعمل فيها شتى الأساليب ومختلف التكنولوجيات الحديثة لما لها من تأثير قوي قصد ترسيخ الأفكار وإثارة العواطف، بحجة ديمقراطية الشعوب وتنويرهم والدفاع عن الحريات الشخصية، ولكن هذا الانقياد الأعمى ولا مشروط غير كثيرا من مجتمعاتنا التي انسلخت عن هويتها واعتنق بعض أفرادها لسلوكيات دخيلة وأفكار ضاربة للثوابت الوطنية، متجاوزين كل الحدود الدينية والقانونية وفي كثير من الأحيان وسيلة لإثارة الفوضى واللاإستقرار.

كلمات مفتاحية: الأمن الثقافي، المجتمعات العربية، العولمة، العادات والتقاليد، الغزو الثقافي.

تعرف المجتمعات العربية في السنوات الأخيرة تحولات مست عدة مجالات اقتصادية وسياسية واجتماعية وثقافية، هذه التحولات متنوعة ومتعددة الأشكال والمستويات، بحيث يمكن قياس البعض منها على ضوء بعض المؤشرات الإحصائية كالنمو الديموغرافي، وأخرى يصعب قياسها وأحيانا لا يمكن رصدها كالتّي تدل على توجهات أو أفكار أو آراء أو حتى سلوكيات الأفراد، إضافة إلى ذلك، هناك تحولات تلقائية أو ميكانيكية، وهناك تحولات إرادية والتي تتركز على قرارات فردية أو جماعية أو توجهات سياسية أو اقتصادية معينة.

إذا تكلمنا عن التحولات الكبرى في الوطن العربي خلال العشر سنوات الأخيرة، فيمكن التطرق إلى التحولات السياسية على ضوء ما يسمى "بالربيع العربي" من تغيير في أنظمة الحكم وما تسببت فيه من حالة الفوضى والأمن في بعض الدول، أو إلى الجانب الاقتصادي وما تفرضه العولمة من توجهات جديدة نحو الانفتاح الاقتصادي وفق متطلبات السوق العالمية، وصولاً إلى التحولات الاجتماعية والثقافية التي تمس البنى الاجتماعية أو الأنماط المختلفة للعلاقات والنظم الاجتماعية، أو فيما يخص القيم والمعايير التي تؤثر في سلوك الأفراد داخل المجتمع أو التي تحدد بشكل أو بآخر المكانة والأدوار في مختلف المؤسسات التي ينتمي إليها أفراد المجتمع.

إن للعولمة تأثيرات كبرى على المنظومات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، فجوهر العولمة هو اقتصادي إلا أنه يتعدى ذلك ليشمل العولمة السياسية كتوظيف المنظمات الدولية من أجل تحقيق أهدافها. كما أن للعولمة أبعاد ثقافية تستهدف من خلالها الهويات القومية ومقوماتها الرئيسية وعلى رأسها الدين واللغة وأنماط سلوكيات معيشية وعادات وتقاليد وكل ما يرتبط بالقيم والمعايير التي يكتسبها المجتمع من خلال مختلف مؤسسات التنشئة الاجتماعية، فالعولمة يمكن أن تكون إحدى أسباب تفتيت المجتمعات وهذا من خلال تدمير البنى الثقافية للبلدان وبناءها الاجتماعي وعزل مفهوم الثقافة عن واقع المجتمع، أي محاولة طمس ثقافة المجتمع بثقافة دخيلة عنه والتي تنتج بدورها سلوكيات وأنماط جديدة تتعارض مع الأنماط التقليدية وهو ما يؤدي إلى تفكك المجتمعات بسبب تغير القيم والمعايير التي كانت تعتبر كقوانين لتسيير المجتمع.

لو نعود إلى مؤسس الأنثروبولوجيا المفكر البريطاني إدوارد بيرنت تايلور Edward Burnett Tylor الذي أصدر كتاباً عن "الثقافة البدائية"، نجد أنه فسر الثقافة على أساس أنها ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والأعراف والعادات والتقاليد التي يكتسبها الإنسان بصفته فرد من المجتمع، وبالتالي يمكن القول أن الثقافة المجتمعية لها دور هام جداً في استقرار المجتمعات وأن ثباتها عامل أساسي في

استقرار البنى الأساسية التي تركز عليها، إلا أن وسائل الاتصال الحديثة لاسيما مواقع التواصل الاجتماعي كان لها دور كبير في إحداث تغيرات في ثقافات المجتمعات، إذ أصبحنا اليوم نتكلم عن مفهوم "الثقاف" والذي يتمثل في تأثير الثقافات بعضها ببعض، نتيجة الاتصال بين الشعوب والمجتمعات مهما كانت طبيعة هذا الاتصال وأهدافه.

من المتعارف به أن لكل مجتمع من المجتمعات له خصوصياته تميزه عن غيره من المجتمعات الأخرى وله انتماءات ثقافية توارثها عبر التاريخ، والمجتمعات العربية على سبيل المثال لها ثقافتها وخصوصيتها الحضارية التي تميزها عن غيرها من المجتمعات. إن العولمة بأشكالها ومنها الثقافية في ظاهرها نعمة، ولكن في باطنها تكون أحيانا نقمة على ثوابتنا الثقافية وخصوصيتنا الحضارية، وكل ما هو مرتبط بهويتنا من لغة وتاريخ وعادات وتقاليد وأعراف، إذ تتسبب أحيانا في طمس المعتقدات والقيم والمعايير المجتمعية، فالدول الغربية تعتمد على إستراتيجية ممنهجة قصد وضع نماذج تتماشى والقيم الغربية وهذا لضرب البنى الاجتماعية للمجتمعات الأخرى. إن التاريخ الاستعماري أثبت أن الاحتلال دائما ما كان يستهدف ثقافة المجتمعات المستعمرة من خلال غرس ثقافة أجنبية عنه، حيث تعتمد على تقسيم تلك المجتمعات على أساس عرقي أو ديني والتي بعضها لازال يعاني من الصراعات إلى يومنا. ولكن حاليا هناك استعمار فكري جديد يتخطى الحدود ويؤثر بشكل كبير على أفراد المجتمع والمتمثل في وسائل الإعلام.

وعليه، لابد أن نستفيد من إيجابيات العولمة كرواج تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، والإطلاع على مختلف الثقافات العالمية من أجل تكوين ثقافة لدى الأفراد والمجتمعات عن التطورات والتحول التي يشهدها العالم في مختلف المجالات، وهذا يشكل لدى المستفيد منها قدرة كبيرة لمعرفة ما يدور في الكرة الأرضية من تغيرات، وقدرة كبيرة على تحليل وفهم الأحداث وإثراء النقاش، بل والمشاركة الفعالة في الندوات العلمية واللقاءات الثقافية. كما يجب علينا تجنب سلبيات العولمة الثقافية، والتي قد تؤثر على هويتنا وخصوصيتنا الثقافية، فالدول الكبرى تعمل على حماية هويتها الثقافية والمحافظة عليها من تيار المصطلحات والمفاهيم الأجنبية.

ونظرا لقوة الغزو الثقافي القادم من الغرب، أريد أن أذكركم بمقولة عبد الرحمان ابن خلدون "المغلوب مولع بتقليد الغالب". هذه المقولة تعكس بعض الحقائق عن الوضع الذي تعيشه بعض المجتمعات العربية، كون البعض من أفرادها ترك ثوابته وأصبح يقلد الغرب في طريقة عيشه وعاداته وتقاليده البعيدة كل البعد عن ما اكتسبه خلال مراحل حياته، والأخطر من ذلك هو أن البعض من أفراد المجتمع أصبح ينظر إلى الأفراد المتمسكين بعاداتهم وقيمهم بأنهم متخلفين، ونسوا أنفسهم بأنهم أصبحوا غرباء عن مجتمعاتهم.

إن الأمة العربية تتعرض في الوقت الحاضر لغزو ثقافي مستمر أثر في نسيجها الاجتماعي الذي مس القيم والأفكار المجتمعية. فبسبب قوة هذا الغزو والصفات المغربية التي تتصف بها بعض القيم والأفكار التي يحملها هذا الغزو تسلت قيم وأفكار كثيرة في النسيج الثقافي العربي وحلت محلها قيم غريبة كثيرة، وهو ما قد يتسبب في إضعاف الشخصية الثقافية العربية الأصيلة وبالتالي إفقادها لتوازنها الثقافي.

كما أن لوسائل الاتصال دور كبير في نشر ثقافات غريبة ودخيلة عن مجتمعنا وهذا راجع لضعف البديل وليس لعدم وجوده، لاسيما مع توسع الفجوة التي أحدثتها العولمة الرقمية. ومع توسع وسائل الإعلام في الوطن العربي، لاحظنا أن بعض القنوات العربية تروج للثقافة الغربية ولها نسبة مشاهدة كبيرة جدا كونها تمتلك وسائل الإقناع والتأثير على العقول، وبالتالي إذا أردنا البديل عن الثقافة السلبية التي تفرضها العولمة على بعض المجتمعات، فلا بد من تحديد الخلل ونقطة ضعف تلك المجتمعات من أجل إيجاد الحلول التي يمكن من خلالها ترسيخ القيم الوطنية وثوابتها.

إن الثقافات الغربية السلبية يمكن ملاحظتها من خلال بعض الظواهر الجديدة والدخيلة على مجتمعنا، والتي تُفرض علينا قصد تفكيك مجتمعنا، فالتنشئة الاجتماعية (من بينها الأسرة، المدرسة، وسائل الإعلام...) لها دور أساسي في تشكيل شخصية وتكامل أبنائنا عبر مختلف المراحل العمرية، وهي تعد إحدى عمليات التعلم التي عن طريقها يكتسب الأبناء العادات والتقاليد والاتجاهات والقيم السائدة في بيئتهم الاجتماعية التي يعيشون فيها.

لو ننظر إلى المجتمع الجزائري على سبيل المثال، نجد أن البعض من شبابنا تأثر بالثقافة الغربية التي بدورها بدأت تؤثر على التماسك الاجتماعي، ولهذا فالتوعية تنطلق من المناهج التربوية والتعليمية وحتى البرامج التي تبثها القنوات التلفزيونية وذلك بما يتماشى مع قيمنا وثقافتنا وعاداتنا وتقاليدنا.

إن الغزو الثقافي الذي نتعرض له من خلال ما يسمى بالعولمة الثقافية يدفعنا لتبني إستراتيجية لمجابهة هذه الظاهرة، فالتربية تعد الأساس وهي النبتة التي نزرعها بداخل أطفالنا منذ الصغر، وهو الدور الأساسي الذي يقوم به الأولياء والمدرسة من خلال تدعيم ثقافتنا وقيم ديننا والحفاظ على تقاليد مجتمعنا والتعريف بتاريخنا العريق، وهذا لترسيخ روح الوطنية لدى الجيل الجديد. وبالتالي، يمكن مواجهة الغزو الثقافي الغربي السلبي من خلال تبني "إستراتيجية الأمن الثقافي" التي تعد صمام الأمان ضد انقسام المجتمعات وتجنب الصراعات الطائفية والإثنية والقبلية التي تعد ورقة رابحة بالنسبة للدول الغربية التي تستثمر في مثل هذه الصراعات للضغط على الدول.

وبالرغم من التباين في الوسائل والإمكانيات التي تملكها كل دولة (باعتبارها الفاعل الرئيسي) لحماية موروثها الثقافي، إلا أنه بالإمكان من خلال وسائل الإعلام ووزارات الثقافة والتعليم العمل وفق خطة ممنهجة لمواجهة أخطار الثقافة الغربية السلبية، إذ يمكن للأفلام والمسلسلات والندوات العلمية والبرامج التلفزيونية أن تقوم بالتوعية، وصولاً إلى وضع تطبيقات وصفحات التواصل الاجتماعي التي يمكن استخدامها في التواصل الإيجابي بما يخدم مصلحة أفراد المجتمع وتكريس الثقافة السائدة لدى المجتمعات، كما يمكن لأساتذة الجامعات والمثقفون وعلماء النفس والاجتماع وأهل العلم من ذوي الخبرات العمل على وضع منظومة متكاملة الأركان تعتمد على العلم، وذلك لترسيخ المبادئ التي تعمل على مواجهة كل ما يشكل خطراً على الثقافة التي تعد من بين الثوابت الوطنية. وعليه، لا يمكن بحال من الأحوال استبدال ثقافة بأخرى نظراً لما تحمله الثقافة بمفهومها الواسع من ثوابت وقيم مجتمعية ■